تاريخ الحضارة الفينيقية

1.التعريف بالفينيقيين:

الفينيقيون هم في الأصل كنعانيون، كانوا يسكنون سواحل شبه الجزيرة العربية، و لغتهم سامية، هاجروا من موطنهم الأصلي ليستقروا عل الساحل الشرقي للبحر المتوسط أي غربي سوريا و ذلك خلال الألف الثالثة ق.م، و لقد احتفظوا بتسميتهم الأصلية كنعانيين. وفي شأن مصطلح الكنعانيون فهو اسم مشتق من كلمة "كناقي" knaggy " التي تعني الصبغ الأرجواني، و في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، أطلق الإغريق على الكنعانيين الساكنين في غربي سوريا اسم فينيقيين المشتق من كلمة phonix أي الأحمر الأرجواني.

2.بلاد فينيقيا:

أهم المدن التي أنشئوها نذكر اورشليم(القدس الحالية) ، و بيشان (بيسان الحالية)، و شكيم (نابلس) و غزة و مجدو (تل المتسلم) و يافا و حيفا و عكا و أسدود و عسقلان و أرواد و جبيل و صور و صيدا و أوغاريت و بيروت و أريحا.

3.التكوين السياسي:

أساس التكوين السياسي لفينيقيا هو نظام دويلة المدينة، وهو يشبه التكوين السياسي الذي كان عليه العراق القديم، أي دويلات مستقلة عن بعضها سياسيا ولكل مدينة منها ملكها و تنظيمها السياسي الخاص بها، وقد تتوحد عسكريا في أوقات الأخطار والتهديدات الخارجية، أي حِين تعرضها لأخطار تهدد أمنها واقتصادها.

4.حضارة الفينيقيين:

كانت حضارة الفينيقيين حضارة سلمية متجهة نحو التجارة و الفن و الديانة و قامت على الزراعة و صيد الأسماك و الحرف اليدوية مثل صناعة الفخار و المعادن و الزجاج و العاج و أهم صناعة هي صناعة المنسوجات و صبغها بالصبغ الأرجواني.و يعتبر الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ حيث اهتموا كثيرا بالتجارة عبر البحار. فكانت لديهم بحرية تجارية.

كانت الديانة الفينيقية ديانة وثنية قامت على عبادة و تقديس عناصر الجو الرئيسية كالأرض و الشمس و القمر و الكواكب الأخرى. أما أهم اكتشاف توصل إليه الفينيقيون هو الأبجدية حوالي 1200 ق.م و التي تعرف عليها العالم عن طريق الإغريق حوالي 700 ق.م.

5.التوسع الفينيقي

يعتبر التوسع الفينيقي من الظواهر المهمة التي حدثت في العصر القديم. ويعني التوسع انتقال شعوب من المشرق إلى أقصى الغرب. و قد بدأ التوسع الفينيقي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ثم انتقل إلى غربه. ولقد كانت لعملية التوسع التي قام بها الفينيقيون عوامل سياسية و أخرى اقتصادية وحتى اجتماعية.

6.عوامل التوسع الفينيقي:

أ.العوامل السياسية:

- أدى تكالب القوى الغازية (المصريين و الآشوريين) للإستيلاء على فينيقيا و أحيانا إلى اقتسامها وهو السبب في توجه الفينقيين نحو البحر.
- أدت غزوة شعوب البحر المدمرة التي اجتاحت بلاد الإغريق و آسيا الصغرى ووصلت إلى الحدود المصرية إلى إحداث فراغ سياسي و استقلال المدن الفينيقية لبعض الوقت هذه الأخيرة التي استغلت فرصة ضعف الأسطول البحري الإغريقي للتوسع في الحوض الشرقي للمتوسط.

ب.العوامل الاقتصادية:

-ضعف الزراعة بسبب ضيق السهول فتوجه الفينيقيون إلى التجارة كمورد رزق بديل لهم.

-توفر المواد الضرورية للتجارة و على رأسها الأخشاب التي كانت تصدر إلى المصريين و الآشوريين و العبرانيين..

-الموقع الممتاز لفينيقيا على الطريق الدولي.

-توفر المدن الفينيقية على موانىء طبيعية لإرساء سفنها.

-البحث عن المواد الخام في شواطىء البحر المتوسط و خصوصا في الحوض الغربي له.

أولا :التوسع في شرقي المتوسط:

بدأ التوسع الفينيقي في الحوض الشرقي للبحر المتوسط بعد أنْ قادته مدينتا صور و صيدا اللّتان عرفتا ازدهارا و استقرارا بعد غزوة شعوب البحر حوالي سنة 1200 ق.م . و قد نتج عن عملية التوسع تلك إنشاء عدة مدن في الجزر المتوسطية، في قبرص نذكر مدينة كيتيونkition، و في بحر إيجه وصل الفينيقيون إلى جزر السيكلاد و جزيرة ثيرا و ميلوس و أولياروس.

ثانيا: التوسع في الحوض الغربي للمتوسط:

يعتبر التوسع الفينيقي في الحوض الشرقي للمتوسط بمثابة خطوة أولى نحو التوسع في جزئه الغربي.و كان لهذا الأخير أسباب نوجزها فيما يلي:

- الهروب من الصراعات التي كانت تتميز بها منطقة الشرق.
- وجود شريك تجاري يبتاع البضائع التي كان يتاجر بها الفينيقيون.
- توفر المعادن الثمينة.
- وجود الأخشاب لإصلاح القوارب و السفن الفينيقية.
- وفرة الخلجان الطبيعية التي كانت تمكن السفن الفينيقية من الاستراحة.

ثالثا: مراحل التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للمتوسط:

مر التوسع الفينيقي في الحوض الغربي للمتوسط بمرحلتين الأولى هي مرحلة الارتياد الباكرة و الثانية هي مرحلة الاستيطان.

المرحلة1: مرحلة الارتياد الباكرة:

تميزت تلك المرحلة برحلات استكشافية تجارية بحتة للبحث عن معادن الفضة و النحاس للعودة بها مصنعة وبيعها من جديد، ومن نتائج ذلك أن قاموابتأسيس محطات تجارية في شبه جزيرة أيبيريا و نذكر محطة قادس سنة 1110 ق.م و في بلاد المغرب القديم نذكر محطات ليكسوس سنة 1110 ق.م و أوتيكا سنة 1101 ق.م.

المرحلة2: مرحلة الإستيطان:

حدث الإستيطان الفينيقي في المحطات التجارية التي كانوا قد أسسوها في مرحلة الإرتياد عندما توفرت الظروف التالية :

- تكاثر عدد المهاجرين إلى المحطات التجارية.
- وجود إرادة سياسية شجعت الإستيطان في الحوض الغربي للمتوسط ممثلا في شخص الملك أحيرام (980 ق.م- 936 ق.م).

و قد تميزت مرحلة الاستيطان بوجود بقايا مادية دلّت على استقرار فينيقي مستمر مثل المقابر. أما تاريخ مرحلة الاستيطان فكان بعد القرن الثامن قبل الميلاد.

مظاهر الحضارية الفينيقية في بلاد المغرب القديم:

أ.اللغة والكتابة:

كانت لغة الحضارة الفينيقية هي اللغة البونية ثم البونية الجديدة التي ظهرت بعد سقوط قرطاج عام 146 ق.م، وقد استطاع المهاجرون القرطاجيون أن ينشروا لغتهم وسط الأهالي، ليس في المدن الساحلية حيث المحطات التجارية فقط، بل حتى في الأراضي الداخلية مثل مدن كيرتا، وقد استعملتها الادارة القرطاجية في تعاملاتها مما اضطر بالأهالي إلى تعلمها وكذلك عن طريق التجارة.

وإن أول إشارة لوجود كتابة ولغة لوبية تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، حيث ذكر أسقف مدينة– روسبيRuspé القس فولجانسFulgence أن هناك كتابة لوبية تتكون من ثلاثة وعشرين حرفا وهي قريبة في معانيها من الكتابة العبرية التي يصل عدد أحرفها إلى أربعة وعشرين حرفا.

استعملت اللغة البونية في المدن البونية ثم تعدى استعمالها إلى المدن النوميدية منذ القرن 3ق.م إلى حد أنها أصبحت اللغة الرسمية ولغة الإدارة ولغة العملة في الممالك النوميدية.

هذا إلى جانب أخذ المغاربة بحروف الكتابة البونية حيث طوروها إلى كتابة خاصة بهم، وبالتالي كان ذلك سببا لدخولهم الفترة التاريخية.

ب .الديانة

تميزت الديانة في العالين البوني (الفينيقي المغاربي) بامتزاج وتشابه في العديد من الآلهة والمعتقدات والطقوس، فقد كان "بعل حمون" و"تنيت سيدا" الآلهة البونية يعبدان بنفس الدرجة في مدن نوميدية كبيرة مثل سيرتا، وشيد لهما معبد في تلك المدينة خلال القرن3 ق.م، و يعتبر أهم معبد بعد معبد العاصمة البونية قرطاج، كما عبد نفس الإلهان في مدن نوميدية أخرى منها قالمة وتديس وخميسة وعنابة.

كذلك أيضا تمثل الامتزاج الفنيقي المغاربي في عبادة الآلهة الفنيقية التي يتمثل أشهرها في الاله بعل حمون والآلهة تانيت ، وغالبا ما كان يرمز لهذين الإلهين الأخيرين بالشمس والقمر أو بسمات خاصة تمثلت بالنسبة للاله بعل حمون في صورة شيخ حسن يستند إلى ظهر كبش أو يجلس على كرسي العرش في بعض الأحيان، أما بالنسبة لتانيت فكانت سماتها تتمثل في المثلث الذي تعلوه دائرة يمتد في أسفلها

خط يمثل الأذرع الممتدة وهي ترمز إلى طلب السقاية واستنزال المطر، وقد تظهر تانيت في شكل أم تضع طفلها على ركبتها.

كما اندمج الإله بعل حمون البوني بعبادة الكبش الليبي الذي عبد في ليبيا خلال الألف الثاني ق.م فظهر الإله البوني بقرون الكبش فوق العملة والنقوش والنصب و الرسوم للخراف والثيران التي وجدت في بعض أنصاب قرطاجة وسيرتا وحدرموت" سوسة"، إذ تبين مدى استمرار العبادة المغربية القديمة العائدة إلى فترة ما قبل التاريخ وتعايشها مع العبادة السامية وهي ظاهرة تدل على الامتزاج الديني، وقد ظلت عبادتهما متواصلة حتى أنا أبا عبد الله البكري يذكر قبيلة عاشت في المغرب الأقصى كانت تعبد الكبش خلال القرن العاشر ميلادي/الرابع هجري.

ولعل من بين مظاهر الامتزاج الأخرى القرطاجية المغاربية نشير إلى مظاهر الدفن ونوعية المقابر والهدايا الجنائزية التي وجدت بالقبور الحجرية كالحوانيت والدولمن التي وجدت معظمها في مجال التأثير القرطاجي أو البوني حيث أن الهدايا الجنائزية تعتبر عادة شرقية فنيقية.

ج. العمارة:

نجد خير الأمثلة وأحسنها على التبادل الحضاري بين القرطاجيين والليبيين في الضريحين الملكيين: ضريح المدغاسن– باتنه حاليا– والضريح الملكي الموريطاني، حيث ضمت الهندسة المعمارية لهذين الضريحين عنصرين أحدهما محلي ليبي والثاني مزيج من التأثيرات الحضارية البونية الإغريقية والمصرية.

يتمثل العنصر المحلي في القاعدة الأسطوانية الشكل والتي تدعى البازيناس، يعود تاريخها إلى فجر التاريخ، أما باقي الضريح المكون من الجزء العلوي المخروطي فعناصره المعمارية ذات تأثيرات بونية ، وجد الكثير منها في قرطاج وهو ذو أصل شرقي إغريقي ومصري.

لكن الدراسات الجديدة التي ناقشت الموضوع لا تستبعد أن تكون تلك الأبنية الضخمة تطورت محليا عن البازيناس التي استعملها المغاربة القدماء في فترة فجر التاريخ لدفن موتاهم وكان الدفن فيها جماعيا.

وعليه يتبين أن المغاربة استفادوا من احتكاكهم بالقرطاجيين من خلال خروجهم من العزلة ، كذلك عرفوا بفضلهم نظام الاستقرار وتأسيس المدن، حيث استقر السكان حول الأسواق فظهرت المدن.